يوميات تبحث عن عنوان

بقلم محمد عبد الله الشفيقي

توفيق الحكيم .
الخميس ١٥ يونيه ١٩٦١ .

أخيرا عثرت على « عودة الروح » ... ولا بد من مطالعتها ، فهي من أشهر ما كتبه توفيق الحكيم . وانا في أشد حالات الخجل لاني قرأت له مسرحيات كثيرة ، وقرأت له « يوميات نائب في الارياف » (كانت مقررة علينا في الثانوي) ... ولكني لم أقرأ له بعد « عودة الروح » ...

وأريد أيضا بعد ان انتهي منها ان أقابل توفيق الحكيم .

ولكن يبدو أن مقابلة أحد سكان القمر أسهل من مقابلة توفيق الحكيم والتحدث معه .. انه يهرب من الناس ومن الصحفيين ، ومن الشبان . ويقال انه يتعمد الهرب ، وان هذا يضاعف من شهرته ، وانه مسرور بذلك ! ويقال أيضا ان عداءه القديم للمرأة كان مفتعلا ، وانه « ساق فيها » وتلذذ بهذه الشهرة الشاذة ، شهرة معاداته للنساء ، مثلما يفعل الاعزب حين تلتصق به كلمة أعزب ... انه يظل على هذه الحالة لمجرد الاعتياد ...

قد تكون كل هذه الاقاويل لا أساس لها من الصحة ..

ولكني أريد أن أقابل توفيق الحكيم واجلس معه .. ونتباسط في الحديث .. فكيف أفعل ذلك ؟ كيف ألفت نظره ؟... نعم ... فالمسألة تحتاج الى لفت نظر ، واثارة ، وهزة عنيفة ... حتى يهتم هذا الرجل العنيد . ان أي اجراء عادي لن يجدي فتيلا .. ماذا أفعل ؟ هل اغيظه ؟ وأغيظ من ؟ هل أنقده بعنف في احدى المجلات ؟!! انه لن يرد بالطبع (هذا اذا صح تفاؤلي المبالغ فيه وقرأ توفيق الحكيم نقدي بالفعل) . وحين سيقرأ المقال سيقرأه خفية .. ولن يقول لاحد انه قرأه .. لن يهتم هذا الرجل ، لن يهتز .. هذا الرجل الذي لا يحضر حفلات تكريمه أو ندوة يناقش فيها انتاجه .. انه غير موجود .. ومن أجل ذلك ظهرت حوله دراسات كثيرة ، لانه لا يفرض وجوده .. انه (ومعذرة للتشبيه) كالادباء والفنانين الذين ماتوا ... ان بعدهم الزماني والمكاني يتيح فرصة كبيرة للدارسين ليكتبوا عنهم الكثير . وتوفيق الحكيم بعيد عنا مكانيا ، أما البعد الزماني فشيء غير مؤكد بالطبع (انه ما زال يعالج مشاكل الساعة .. هل قرأت « رحلة الى الغد » ؟) .

ماذا أفعل بالله كي أقابله ؟ شقيقتي رأته مرتين وعرفت بيته عن طريق الصدفة ، ذات مرة همت بدخول مصعد بيت يطل على كورنيش النيل وأشرعة النيل الجميلة فوجدت توفيق الحكيم بدمه ولحمه يخرج من هذا المصعد . راعها بياض وجهه (أنا أيضا دهشت .. كنت أحسبه أسمر اللون ، هذا ما كانت توحي به صوره) . تقول انه أبيض بياض طه حسين !! شاربه مثل فرشاة خشنة لطلي أبواب المنازل بالزيت . في المرة الثانية كانت تقترب من نفس البيت .. وجدته في الطريق ، كان بالطبع خارجا من العمارة اياها .. ابتسم قليلا في خبث .. يا لذاكرته .. مضى لا يلوي على شيء .

أفكر الان في أن أرابط في هذا الشارع . أفكر في ان آخذ اجازة عارضة من الشغل لمدة يومين لاعسكر هناك ، وحين يخرج سأسير وراءه ثم أصيح فجأة : « على فكرة! مسرحية « السلطان الحائر » زي الزفت يا أستاذ توفيق » .

والواقع ان مسرحية « السلطان الحائر » ليست بهذه البشاعة ، ولكن ما الحيلة ؟ انني أريد أن أغيظه ، أن ألفت نظره . وأعتقد أنه سيدهش ، وسيلفت نظره هذا «التحرش النقدي » على قارعة الطريق ، ولا أظن أنه سيطلب بوليس النجده ويزج بي في السجن بتهمة محاولة « اغتصاب شهرته الادبية » او الاعتداء على عفافه الفني .

ان الذي أتصوره الان عكس هذا كله .. انه سينظر وراءه ويتساءل : هوه انت قريتها ؟ (هكذا ! دون غضب أو غيظ ... دون استخدام لعصاه العتيدة !) وربما قال: ما انا عارف انها زي الزفت .

وطريق الكورنيش طويل ، طويل جدا . وهادىء . وسنسير بالطبع ، ولو حاول الهرب والسير بعجلة فسأجري وراءه ، وأطارده .

انني أتذكر الان كل هؤلاء المشاهير ، في كل ركن من أركان العالم ، حين يهربون من الصحفيين والمصورين والاصدقاء والدارسين .. انني أتذكر شارلي شابلن ، وجان بول سارتر .. ولكني أتذكر أيضا كيف استطاع أحد الصحفيين أن يقتحم منزل شارلي شابلن وينتزع منه حديثا لطيفا . كانت المدينة تحتفل بأعياد الميلاد ورأس السنة ، ودق الصحفي الماكر جرس باب شارلي شابلن وهو يرتدي ملابس .. بابا نويل ! وكانت مفاجأة ، مفاجأة لطيفة بالطبع .. ودخل بمكره .. وخرج بحديث . أريد أن أجلس مع توفيق الحكيم ، بدون ورقة أو قلم ، ثم استدرجه في الحديث ، مصطنعا البراءة والسذاجة والعبط ، وتاركا ورائي أي ثقافة أدبية ، ومتحدثا اليه بوصفي مجرد قارىء يحاول ان يتذوق . ساعتها أتمنى أن يفتح لي قلبه ويتحدث بحرارة وصدق وتواضع .. انه لا يعرف أن حديثه المباشر عن نفسه وذكرياته يسفر عن أنجح اعماله الادبية . اننا نعجب بـ « يوميات نائب في الارياف » جدا ، وهي يوميات مباشرة وذكريات ذاتية ـ ونعشق (من منا لا يعشقها ؟) « زهرة العمر » وهي رسائل بعث بها الى صديق فرنسي يدعي اندريه . انها من أروع ما كتبه توفيق الحكيم .

والا فما العمل ؟ هل نستمر في التعرف على انباء توفيق الحكيم وخلجاته من قلة القلة المتصلة به ؟ لماذا لا يتكلم ؟

ان المتصلين به يحكون عنه أشياء غريبه ، طريفه، ولطيفه . هذا هو أحد معارفه القدامى يحكي عنه أثناء عمله بالنيابة ، كان يجلس باستمرار في قهوة معينة اخر النهار ، في البلدة النائية الهادئة التي كان يعمل بها يجلس توفيق الحكيم وقد غاب عن الوجود . ويظل يحملق في لا شيء ، واحيانا كان هذا الصديق يلمحه وهو يحرك شفتيه في غموض ، وذات يوم اقترب منه دون ان يدري ، فسمعه يتمتم في حرارة « بريسكا .. بريسكا .. بريسكا » . وأصبح هذا الاسم الذي ينضح موسيقى ، أصبح بطلة .. في « أهل الكهف » . هكذا اقتنص توفيق الحكيم الاسم بعد ان أخذ يناجيه في حرارة ويستوحي الاحاديث التي مرت بصاحبة هذا الاسم .

وتوفيق الحكيم يشتغل في المجلس الاعلى لرعاية الفنون والاداب ، والذين يشتغلون معه يروون عنه حكايات كثيرة ، حكايات تنتهي كلها بحكم واحد — وهو أنه غريب الاطوار . انه يخرج الى حديقة المجلس ، وأحيانا يسير في الحديقة حتى يصل الى السور ويطل من ورائه الى الشارع ويظل يحملق ، ربما لساعات ، يحملق في أي شيء او في كل شيء او في لا شيء على الاطلاق .

وذات مرة ذهب اليه شاب ، وقال له انه صحفي، وانه يريد ان يأخذ منه حديثا، ورفض توفيق الحكيم، وبدلا من ان يستجوبه الصحفي استجوب هو هذا الصحفي المسكين ، قال له ما معناه : « وليه يا بني بتشتغل صحفي؟ حايفيدك العمل الصحفي بايه ؟ وتفتكر أن الحديث اللي حاتاخده مني مهم ؟ شوف يا بني نصيحه مفيده لك : اذا كان لك ميل أدبي أو استعداد فاكتب أحسن لك قصص قصيرة .. مع السلامة » .. وخرج الشاب وهو يتصبب عرقا . ولا أعتقد انه ذهب الى منزله او الى مكتبه في الجريدة ليكتب قصة قصيرة !!

وذات مرة دخل توفيق الحكيم مكتبة المجلس (يقال انه يعشق الجلوس فيها كثيرا) وكان يبحث عن كتاب معين، وأراد ان يسأل عنه موظف المكتبة ، ولكنه لم يجده، واستشاط غضبا ، وصاح : فين الراجل بتاع المكتبة ؟

ويبدو ان الراجل بتاع المكتبة كان في شأن من الشؤون ، وربما كان مزوغا ، فوقف توفيق الحكيم وصاح في غيظ : هو ليه مش موجود ، الله !!! هيه وظيفته هنا انه يكون مش موجود ؟!

* * *

هكذا ... الفلسفة حتى في ساعات الغضب: وظيفته هنا انه يكون مش موجود !!

هذه هي القصص التي حكاها لي أحد الاصدقاء عن توفيق الحكيم ، والعهدة بالطبع على الراوي ، والواقع ان كل همي الان ان أغيظ توفيق الحكيم ... ترى هل أنفس بذلك عن احساس بالفشل في تدبير مقابلة معه .. أم لالفت نظره كما ادعيت في مستهل اليومية ؟

الواقع أنني لا أعرف !

يا طالع الشجرة !
الجمعة ٣٠ نوفمبر ١٩٦٢ .
الساعة الثانية صباحا .

أحدث مسرحية لتوفيق الحكيم اشتريتها امس ولما يمض على ظهورها في السوق سوى أيام معدودات . واسم المسرحية : يا طالع الشجرة . وهنا ألفت النظر الى ظاهرة مألوفة : قد تكون لدينا عبارة لها ايحاءاتها المعينة،

وذبذباتها المعينة ، وجرسها المعين . ثم يجيء كاتب أو عالم أو شخص مهم ويستعملها في سياق خاص فتكتسب هذه العبارة طابعا جديدا — وفي كثير من الاحيان تكتسب طابعا مهيبا .

من الان فصاعدا سيكون لعبارة « يا طالع الشجرة » معنى يضاف الى المعنى الصبياني المرتبط بهذه الانشودة العذبة التي كنا نتغنى بها في طفولتنا ، والتي ما زلت أذكر ايقاعها وكأني حفظتها من نوته موسيقية . ومن الان فصاعدا قد نسمع عبارة «يا طالع الشجرة» فنتذكر شيئا اخر غير مجرد الاغنية الطفولية ، سنتذكر ان هناك مسرحية غريبة لكاتب كبير ، مسرحية اسمها « يا طالع الشجرة » .

لا أكتم انني احسست بدهشة حين قرأت نبأ هذه المسرحية في الصحف، انها دهشة تستشعرها امام العنوان، خاصة وأن هذا العنوان لمسرحية لتوفيق الحكيم . « يا طالع الشجرة » بعد « السلطان الحائر » ! شيء غريب. ولكنك تعتاد الامر شيئا فشيئا . ان من خصائص الانسان قدرته على الاعتياد .

لا أكتم أيضا فرحتي حين وجدت لهذه المسرحية مقدمة ، خاصة وان هذه المقدمة بقلم المؤلف نفسه ! وهنا قد يتساءل متسائل : ومتى كان توفيق الحكيم يترك مقدمات مسرحياته لغيره ؟ أجيب على هذا بقولي اننا أصبنا بعقدة منذ « السلطان الحائر » فقد أثارت المسرحية جدلا، وتعددت التفسيرات التي أخذ معظمها يدور حول مشكلة السلام واستخدام القوة ودور الامم المتحدة . لماذا ؟ لان المقدمة أشارت الى السلام والقوة والامم المتحدة. وفوجئت في احدى الندوات برأي جريء ملت الى تصديقه فورا ، رأي يقول : ومن الذي قال ان توفيق الحكيم هو الذي كتب مقدمة « السلطان الحائر » التي تستغرق شبه صفحة في الكتاب ؟ لم لا يكون الناشر ؟

نعم .. لم لا ؟ خاصة وانه ليس هناك – في تلك المقدمة – ما يثبت انها لتوفيق الحكيم . انها مقدمة « رسمية » ، كأنها مذكرة مرفوعة مع تقرير ، داخل ملف، في مكتب حكومي.

أما « يا طالع الشجرة » فان مقدمتها الطويلة من وضع توفيق الحكيم نفسه . والادلة المادية تثبت ذلك ، من هذه الادلة حديث المؤلف عن تجاربه ومخاطبته للقارىء مباشرة، وتوقيعه على المقدمة بـ « الاحرف الاولى » ! ما أشد ما فرحت حين وقعت عيناي على المقدمة . فرحت بها حتى قبل أن أقرأها . أخيرا تنازل توفيق الحكيم وتكلم .. وفي صفحات كثيرة .. بعد ان تركنا حيارى لفترة طويلة، بعد ان تركنا نتشاجر حول « السلطان الحائر » بعد ان تشاجرنا حول اخوة لها من قبل . ولو قلت انني فرحت فقط بالمقدمة لجافيت الحقيقة . كان هناك شعور أقوى من شعور الفرح، ربما أسميته : الشعور بالمفاجأة . لقد اعتدت – في الفترة الاخيرة بالذات – على صمت توفيق الحكيم . فلم يعد يكتب مقالات ، كما انه ظل على عناده مع الصحفيين . يضاف الى هذا انه لا يكتب في الصحف، ولا تسجل له ندوات ، ولا يعلق على نقد يكتب عنه. اعتدت صمت توفيق الحكيم لدرجة أني تصورت ان توفيق الحكيم لا يتكلم الا مسرحيات ، وان هذه هي طريقته الوحيدة في التعبير ، وان حديثه في التليفون أو مع الصفوة من أصدقائه ، أو حديثه في البيت ، يعد خروجا على المألوف. انه ساعتها أشبه بشاعر يترك الشعر ليتحدث بالنثر من نفسه « بكسر النون » .

والهدف الذي كتب الحكيم من أجله هذه المقدمة هدف نبيل . انه يريد ان يفسر موقفه ، ونظرته الى مختلف التيارات المسرحية المعاصرة ، والغرض الذي من أجله كتب هذه المسرحية ، مسرحية « يا طالع الشجرة » . غير أن توفيق الحكيم ليس رجلا ساذجا ، فان الصفحات المطولة التي استغرقتها مقدمته لا يمكن ان تفسر لنا « يا طالع الشجرة » ، ولا يمكن ان نلومه على هذا ، اذ لو فسر المسرحية تفسيرا « مدرسيا » فما الذي سيتبقى لنا نحن القراء ؟ وما الذي سيتبقى للنقاد ؟ وما الذي سيتبقى للمخرج الجريء الذي أنتظره على أحر من الجمر لارى كيف سينفذ هذه المسرحية بأبعادها الزمنية الغريبة ؟ وبهذا التأرجح الذي تنتقل فيه من المعقول الى اللامعقول، ومن اللامعقول الى المعقول ؟

هنا أتذكر على الفور مسرح الجيب . كفى شجارا حول « دائرة الطباشير القوقازية » .. وكفى أخبارا صحفية حول موعد الافتتاح ، وحول البرنامج الذي يتم تعديله في كل خبر ، حتى كدت أعتقد ان مسرح الجيب سيقدم أي شيء ، أو أنه سيقدم كل مسرحيات العالم.

اليكم مسرحية يمكن ان تقدم على « مسرح الجيب »، أم أن الشرط الاساسي لنشاط مسرح الجيب ان تكون مسرحياته أجنبية ؟ ان مسرحية « يا طالع الشجرة » لا يمكن ان تمثل على مسرح عادي ، ولا يمكن ايضا ان يتقبلها الجمهور بسهولة او بساطة . اننا هنا نعجب بشجاعة توفيق الحكيم الذي قدم لنا هذه المرة شيئا غريبا للغاية ، أو قدم لنا على الاقل : شيئا جديدا على مسرحنا ان لم يكن جديدا على مسارح أخرى في بلدان اخرى . ولكن واضح ان الذي شجعه على هذه التجربة نجاح المسرحية السابقة « السلطان الحائر » ، وهذا واضح من مقدمة توفيق الحكيم ، فهو يشير الى النجاح الذي صادفته هذه المسرحية السابقة لدى جمهور المسرح ، ويبدو انه لم يكن يتوقع مثل هذا النجاح.

اشتريت « يا طالع الشجرة » مساء أمس وانتهيت من قراءتها في منتصف الليل . وها أنذا أكتب عنها بعد مضي ساعات. أكتب ولا أتوقع أن أقول شيئا عميقا ، وانما هي مجرد انطباعات أولية . ان المسرحية لا تخاطب هذه المرة عقولنا ومنطقنا بالطريقة المألوفة وانما تنفذ الى كياننا بطريق آخر ، مثلما ينفذ الرسم السريالي الى نفوسنا بطريق يكاد يغرينا بأن نسميه : طريق الغريزة . وقد أشار توفيق الحكيم الى هذا في المقدمة . وها أنذا أستسلم للمسرحية وأحاول أن أتركها تؤثر علي بطريق آخر غير طريق العقل والمنطق والادراك المألوف، أتركها تؤثر علي مثلما تؤثر فينا أساطير أبي زيد الهلالي أو أغنية « يا طالع الشجرة.. هات لي معاك بقرة.. تحلب وتسقيني..بالمعقلة الصيني ... والمعلقة انكسرت ... يا مين يداويني ... داواني عبدالله ... دخلت بيت الله ... الخ ... » بل فكرت في أن ألجأ الى الفراش وأنام فور قراءتي لهذه المسرحية حتى أتركها تعمل عملها في عقلي الباطن . من يدري ! قد استيقظ في الصباح وأكون أكثر فهما لها . فكرة غريبة ... أليس كذلك ؟ بيد اني فكرت فيها جديا .

وسأنتظر وأعود الى المسرحية من جديد وأطالعها بتمعن لاني أريد أن أكتب عنها ، أريد أن أكتب عنها دراسة. وبديهي ان الدراسة لا يمكن ان تكتفي بعملية اللجوء الى الفراش والنوم وترك مهمة النقد للعقل الباطن ! لا أعتقد . والى أن يوفقني الله الى مهمة الدراسة الشاقة سأكتفي بما قلته ، وبملاحظات عابرة . منها انني أقبلت على هذه المسرحية بروح من التحدي ، وكان التحدي موجها نحو

دار الاتحاد

تقدم

دوامة القدر

رواية ، تأليف : **حافظ ابو مصلح**

ثريا

رواية ، تأليف : **فاضل السباعي**

الموسيقى أحيانا

تأليف الكاتبة الفرنسية : **فرانسواز ساغان**
ترجمة : **غياث حجار**

العبث

دراسة للفيلسوف : **البير كامو**
ترجمة : **سالم نصار**

يصدر قريبا :

رصيف الزهور

رواية جزائرية ، ترجمة : **احمد نشوقي**

●

دار الاتحاد للطباعة والنشر

حوار توفيق الحكيم . سأغامر وأقول انني لم أعجب بطريقة توفيق الحكيم في معالجة الحوار في « السلطان الحائر » ذلك انه حوار ثقيل ، بارد المعدن . ان فيه فكرة ، ووسامة، وبنيانا ، غير أنه بارد ، بلا روح . يحدث هـذا مع أن المسرحية ستمثل ، وقد مثلت بالفعل . كان الله في عون الممثلين والممثلات . بل اني أعتقد أن « السلطان الحائر » ليست وحدها في هذا الميدان . مسرحيات كثيرة قرأتها لتوفيق الحكيم فدهشت لبرود الحوار . وسأغامر وأقول ان توفيق الحكيم يتفوق في أشياء كثيرة في المسرحية غير انه لا يتفوق في الحوار !!! (هذا اذا استطعنا أن نعزل أحد عناصر المسرحية عن باقي عناصرها ! !) . وقد ينطوي هذا التصريح على تناقض ، وقد يتساءل متسائل : كيف تقول ان توفيق الحكيم بارع ثم تقول انه فاشل في الحوار ؟ وكيف يمكن لمسرحية أن تقوم والحوار فيها متعثر ؟

هذا ما يحيرني ! !

لا يمكن أن نقول أبدا ان توفيق الحكيم خدم لغة المسرح . لقد خدم المسرح . قدم أفكارا . عرض مفاهيم جديدة . شق أرضا عسيرة . أما الاسلوب ، أما اللغة نفسها ، فانني ما زلت ازاءهما عند موقفي . ومما يثبت أن اللغة ليست هي شغل توفيق الحكيم الشاغل قوله في مقدمة « يا طالع الشجرة » انه بالرغم من أن « يا طالع الشجرة » ذات جذور ممتدة في تربة تراثنا الشعبي الا انه شاء « عن عمد » (هذا ما يقوله بالحرف الواحد) ألا يكتب المسرحية بلغة شعبية ، أي بالعامية ، وأن من بين الاسباب التي دفعته الى ذلك انه أراد أن يكون مفهوما أن الاستلهام ليس هنا على أساس لفظي أو لغوي بل على أساس آخر .

من المؤكد أن اللغة ليست شغل توفيق الحكيم الشاغل .

قلت انني أقبلت على هذه المسرحية بروح من التحدي وأن التحدي كان موجها نحو حوار توفيق الحكيم . ولكنا سنظلم « يا طالع الشجرة » اذا ما قارنا حوارها بحوار « السلطان الحائر » . ان شيئا من الدفء يدب في أحدث مسرحيات توفيق الحكيم . وأنا أحلم بأن يزداد الدفء وأن تلتهب مسرحياته القادمة. يكفي أن أقول هنا ان الحوار يتلاحق في ايقاع سريع ينسينا الايقاع البطيء المزعج الذي كان يتثاقل على أرض « السلطان الحائر » .

القاهرة — **محمد عبدالله الشفقي**

تطلب « الاداب »

وكتب « دار الاداب »

في الجزائر

من مكتبة النهضة الجزائرية

٣٧ نهج عمر القامة

الراوي

سأروي .. اذا اتكأ الليل في خاطري .. في قراري .. سأروي

وان في ضباب الطريق الى الريح يوما تناستني الريح .. أروي

عن الاصدقاء القدامى مضوا .. نشروا الاجنحه

أشاروا مع الريح في المنحنى .. وزفتهم الطرق الجامحه

هنا ضمنا الركن في الجامعة

موائد وجد .. وأعياد صمت .. عيونا خراب ..

وأكواب شاي .. ووشما عتيقا بصدر كتاب ..

تلامس أعيننا المتعبات سقوف المغاره ..

وتنساح من سقفها المرمري .. من العقم فيها .. بقايا حضاره

مضغنا الزمان ..

مضغنا الاحاديث في مذبح الركن .. قلنا : نضبنا

تسابقنا في الصقيع الممدد فيها العقارب .. حتى تعبنا

ضحكنا لعابرة في الصقيع .. انحنينا لها ..

تمنيت لو ضمنا الثلج في ليلة حولها ..

أغني لكم أصدقائي القدامى .. عن الليل .. عن ليلتي الضائعه ..

رماد المجامر في موقد الصمت نحن .. بقاياي .. أغنيتي الجائعه ..

سأروي لكم ـ أصدقائي القدامى ـ أحاديث وجد بصدري قديمه ..

عن البحر .. عن عابر صلبته الرياح عليه .. معي

وجلادنا .. الليل .. شيخ طويل عريض القفا

سأغمض عيني .. أروي لكم أصدقائي القدامى .. فظلوا معي .. لا تقولوا : كفى .

جامعة دمشق — **فواز عيد**